مصطلح فجر التاريخ : تضارب في مقاييس مفهومه

مصدر هذه التسمية فرنسي ويطلق بصفة عامة من طرف الباحثين الأوروبيين على فترة تاريخ البشرية المحصورة ما بين فترة ما قبل التاريخ التي تسبقها، والعصور التاريخية التي تليها بظهور الكتابة التي تتخذ منها عنصرا أساسيا في دراستها. أمّا فجر لتاريخ التي تعدّ بمثابة فترة انتقالية بين العصرين سالفين الذكر فبالإمكان دراستها عن طريق النصوص القديمة للشعوب التي دخلت التاريخ مسبقا مثل الفينيقيين، والإغريق والرومان. وعن طريق علم الآثار، الأنتوغرافيا، والأنثربولوجيا. ففي أوروبا أخذت الأبحاث المتعلقة بهذه الحقبة أشواطا كبيرة من خلال كثرة التنقيبات وما يليها من دراسات وتحاليل، يرتبط مصطلح فجر التاريخ عندهم بالفترة الزمنية الموافقة لعصر المعادن التي تبدأ مع الألفية الثالثة الموافقة مع العصر البرونزي في مناطق أوروبا الغربية، الشمالية والوسطى أما المنطقة التي تطل على البحر الأبيض المتوسط فقد دخلت العصور التاريخية مبكرا مع نهاية العصر البرونزي لاحتكاكها بالحضارات الأخرى. أمّا بخصوص شمال إفريقيا، فلغياب الأدلة الكافية والجوهرية عن عصر المعادن بها، تمّ إدراج الثقافة الميغاليثية وشبه الميغاليثية في مرحلة فجر التاريخ لتشابه هيكنتها العامّة بتلك المنتشرة بأوروبا، حيث شغلت سياسيا بهدف إظهار العجز التاريخي والحضاري لبلاد المغرب بأساليب خاطئة، في محاولة لترسيخ مدى التأثير الأوروبي بأجناسه ومعتقداته وثقافته على الشمال الأفريقي. وأنّ تحديد هذه الحقبة زمنيا بهذه الربوع خضع لقواعد وأسس غير موضوعية، متناقضة والواقع البيئي والحضاري والأنثربولوجي والتاريخي لبلاد المغرب.

تعريف

1- الموسوعة الكونية (العالمية) Encyclopedie universalis

يجمع فجر التاريخ بين معارف السكّان عديمي المعرفة بالكتابة والمعاصرين لأولى الحضارات التاريخية. فبالنسبة لأوروبا كانت تتعلّق أساسا بالألفيتين قبل المسيح الموافق لعصر المعادن (الفترة التي يغطّيها)، تلي عصر ما قبل التاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة، الذي يضم كل من العصر الحجري القديم، والحديث، والعصر الحجري الوسيط (الميزوليتي) والعصر الحجري الحديث. وفجر التاريخ ليس مجرد فترة انتقالية ما بين ما قبل التاريخ والتاريخ فحسب، ولكن بمثابة مرحلة التطور الإنساني الذي شهد -على وجه الخصوص- اكتشاف وتطوير المعادن من نحاس وبرونز وحديد....بالإضافة إلى ظهور مختلف الجوانب المتعلقة بالاقتصاد (التجارة بالمعادن والأدوات المصنعة) والدين (عبادة الشمس، حرق أجساد الموتى).¹

ومازال مصطلح فجر التاريخ قيد الاستخدام منذ أواخر القرن التاسع عشر تحت تأثير علماء ما قبل التاريخ الفرنسيين أمثال De Mortillet G. ففي ذلك الوقت، أدرج P. É. Littré في قاموسه للغة الفرنسية كلمة فجر التاريخي «PROTOHISTORIQUE» بمفهومه: "الذي ينتمي إلى بداية التاريخ 'Qui appartient aux débuts de l'histoire' حيث سجّل بأنّه ظهر على أعمدة الجريدة الرسمية الفرنسية يوم 05 أبريل 1877 تحت عبارة: Les peuplades préhistoriques et protohistoriques²، وكان ذلك بثلاثة وثلاثين سنة قبل استعماله من طرف J.Déchelette الذي يعتقد البعض بأنه أول من استعمل مصطلح «La protohistoire» فيتعيّن علينا توضيح هذه النقطة مع إنصاف مبتكري هذا المصطلح كون المسألة ليست حسب اعتقادنا بعفوية ويجب أخذها بحذر، ما اتّضح جليا من خلال ما أدلى به J. Déchelette الذي تطرّقنا إليه في موضوع الميغاليثية.

¹<http://www.universalis.fr/encyclopedie/protohistoire/>

²<http://www.universalis.fr/Op.>

2- جوزيف ديشلات J. Déchelette :

اعتبره كامبس جزافا بمثابة أول من عرّف بفجر التاريخ، ونجد عنده رؤية عامة عن هذه المرحلة التي بقيت سائدة منذ سنة 1910 ويرى بأن " بعد هذه الخطوة الأولى (فترة ما قبل التاريخ) ... نجد أنفسنا بوجود حضارة جديدة تكمن في عصر البرونز، وهي حقبة بدأت تظهر في بلاد الغول وفي سائر أوروبا الشرقية في الألفية الثانية قبل الميلاد.

3- جان بيار ميلوت J.P. Millotte :

حدّد سنة 1970 فترة فجر التاريخ في مجالها الأوربي بمثابة مجموع عصر المعادن (عصر النحاس، والبرونز والحديد)

4- غابريال كامبس G. Camps 1961 :

تعدّدت وتناقضت الآراء بخصوص فترة فجر التاريخ في شمال إفريقيا لدى كامبس، الذي يرى :

- بأنّها لا تنتمي إلى فترات ما قبل التاريخ، ولا للفترات التاريخية. بل هي فترة ترجع أو تعرف بالاختلاف في الاتجاه الحضاري من العصر الحجري الحديث، المنحصر خصوصا في المناطق الصحراوية، والمنذر بسبب العوامل المناخية، كبروز الجفاف التام في الصحراء، إلى قدوم التجار والبحارة الفينيقيين على سواحل شمال إفريقيا ومعهم تم إدخال تقنية استعمال الخشب لغرض صناعة السفن، وكل ما ينجرّ عنها من تطوير الملاحة واستعمال مادة الزفت لدهن السفن¹.

- ثم أرّخها بفترة عصر المعادن التي يرى بأنّها متزامنة مع العهد البوني المشكّل للعالم القديم للبربر². وحين إبرازه لخصوصيات فترة فجر التاريخ الشمال إفريقي بكونه أيضا نوعا من أنواع الآثار الريفية، التي يحددها زمنيا حيث يقول بأنها تسبق أو تتزامن أو تلي حضارة تاريخية ما³. وبهذا يكون قد تناقض مع نفسه بخصوص مسألة التأريخ بحكم العهد البوني الذي تزامن مع الفترات التاريخية المحضة التي لم تعرف الكتابة فحسب بل شهدت تطورا وتمييزا عن الكتابة

¹ - Camps G., Aux origines de la Berbèrie, Monuments et rites funéraires protohistoriques de l'Afrique du nord. p.29.

² - Camps G., Ibid, p. 342.

³ - Camps G., Aux origines de la Berbèrie. Massinissa ou les débuts de l'histoire. Libyca, A.E., T. VIII, p. 8.

الفينيقية. ويعدّ هذا بمثابة اعتراف غير معلن من طرف كامبس مفاده أن فترة فجر التاريخ بمفهومه ما هي إلا فترة تاريخية.

- وهناك بعض التساؤلات انبثقت من ملتقى أقامه المعهد الوطني للآثار والفنون (المعهد الوطني للتراث حاليا) بتونس في شهر أكتوبر من سنة 1986 أين قدم G. Camps مداخلة تحت عنوان : فجر التاريخ في شمال إفريقيا - مسألة مصطلح¹. تناول فيها هذا الموضوع بكيفية ورؤية منطقية وأثرية مبنية على أسس وقواعد علمية تراجع على إثرها في نسب المعالم الميغاليثية إلى فترة فجر التاريخ عدا تلك المتواجدة في المناطق الصحراوية حيث أرخت معالم سيلات الشبه قلاعية (شوشات) بـ 1530 ± 100 بعد الميلاد، ومعالم تيت بـ 1300 ± 100 بعد الميلاد و 1270 ± 100 بعد الميلاد. حيث قال: "المهام التي أنا بصددتها مخيفة ومن الآن فصاعداً، أعلم بأنني أؤسف القارئ"، وعلى الرغم من الخروج المفاجئ وغير المتوقع من طرف كامبس والمعاكس تماما لما كان يصبو إليه من خلال نظرياته وأفكاره وآرائه التي ما لبث محافظا ومنتشبا بها منذ الخمسينيات من القرن الماضي، صار يطبق -لحفظ ماء الوجه- مصطلح فجر التاريخ على المعالم الجنائزية الميغاليثية وشبه الميغاليثية من الزاوية المعمارية. وعلى الرغم من كل ذلك فإنّ جل باحثينا المعاصرين لايزالون ينسبون هذا النوع من المعالم الجنائزية لمنطقة شمال الصحراء إلى غاية البحر الأبيض المتوسط، إلى فترة فجر التاريخ بمصطلحاته وتاريخه الأوروبي.

5- فرانك بورديي Franck Bourdier:

أعطى بورديي سنة 1950 تعريفاً لفجر التاريخ، مستهلاً الأول بتحديد مجاله التاريخي الممتد من اكتشاف التعدين إلى غاية ظهور الكتابة. ويرى بأن تقدّم المعارف بخصوص آثار المشرق، حثمت علينا تقليص الفارق الزمني الفاصل بين هاذين الاكتشافين، ولهذا لم يعد فجر التاريخ يظهر وكأنه فترة زمنية بل بمثابة نمط حضاري، يرجع جلّه إلى الفترة التاريخية، بمعنى لاحق لظهور الكتابة، لكن دون استعمالها، ففجر التاريخ ما هو في الأساس سوى "شبه تاريخي" Une para-

¹ - Camps G., protohistoire de l'Afrique. Questions de terminologie. p.2.

histoire. وعلى عكس هذا، فإنّ فترات ما قبل التاريخ ذات الفن التصويري المنذر بالرموز، تجعله ينتقل من ما قبل التاريخ إلى التاريخ ويستحق أن يسمّى بفجر التاريخ¹.

أمّا في مقاله الثاني، فقد رأى أنّه من المنطقي منح مصطلح فجر التاريخ للحقبة التي تتوسّط ما قبل التاريخ والتاريخ، ولهذا اقترح بداية فجر التاريخ بظهور الفن التصويري للعصر الحجري القديم الأعلى. هذا الفن الذي يعدّ من أسلاف الرموز ومن ذلك الكتابة. ويصبح التاريخ بمثابة عصر الكتابة وفجر التاريخ عصر التصوير المنذر لها. ليضيف بأنّ كل من فترات ما قبل التاريخ، وفجر التاريخ والتاريخ ما هي إلا مراحل كبرى متعاقبة على الإنسانية جمعاء تبدأ كل واحدة في نفس الوقت لكل شعوب العالم. مهما كانت درجة حضارتهم كمثل التاريخ الميلادي الذي يبدأ في وقت واحد لجميع الناس بغضّ النظر عن دياناتهم².

- أمّا وجهة نظرنا بخصوص هذا الموضوع، فنرى أنه بدلا من انتساب هذه المعالم إلى فترة فجر التاريخ مبهمة التحديد الكرونولوجي في شمال إفريقيا، ومحاولة ربط بدايتها بنهاية العصر الحجري الحديث فنفضّل قراءتها ودراستها بطريقة عكسيّة بمعنى منذ نهاية استعمال المعالم الجنائزية الميغاليثية، وشبه الميغاليثية التي بقيت سائدة لدى السكّان المحليين إلى غاية الفترة القديمة Antiquité اعتمادا على الأثاث الجنائزي المعثور عليه بداخل هذا النوع من المقابر مثل القطع النقدية النوميديّة والرومانية ومختلف الفخاريات القديمة كالمصاييح الزيتية، والأواني المصنوعة بالدولاب والأنفورات، والقطع الفخارية المكتوبة بأحرف بونية وليبية. بالإضافة إلى وجود شواهد القبور المصوّرة والمكتوبة بأحرف ليبية على عدد من التلال الجنائزية والمصاطب، وطرق وتقنيات البناء التي استخلصنا بأنّها كانت سائدة خلال الحقب التاريخية التي استعملت فيها معدّات وتقنيات كان الإنسان مسيطرا عليها بكيفية راقية جدا ومتطوّرة بوسائل حديثة التأريخ، وبعيدة كل البعد عن نظيرتها المستعملة والمنتهجة على مقابر الدولمن الأوربية.

¹ Bourdier F., Sur la définition de la protohistoire B.S.P.F. 1950, tome 47, N. 5. P.211

² Bourdier F., Préhistoire et protohistoire. Bulletin de la Société préhistorique française. 1950, tome 47, N. 11-12. p. 551.

ويبقى من الصعب -في الوقت الراهن- تحديد بداية استعمال وبناء المعالم الجنائزية الميغاليثية وشبه الميغاليثية في شمال إفريقيا، ويرجع السبب إلى النقص الكبير في الأبحاث العلمية، والدراسات الموضوعية، والتحليل المخبرية، مما أدى إلى نقص في الوثائق والمؤلفات المتعلقة بهذا الموضوع. إلا أن القليل من نتائج الدراسات الأخيرة حول معالم هذه الفترة بشمال الجزائر وتونس، بدأت تؤرّخ عيّنات من محتوياتها العضوية بالكاربون 14 بحيث أعطت تأريخات، لا يفوق جُلها القرن الرابع قبل الميلاد.

تمّ حلّ معضلة هذا العصر في الدول الأوروبية والشرقية بصورة متقدّمة، حيث قسّم إلي حقبين ثقافيتين متباينتين أين عرف مصدر الابتكار ومواطن الانتشار، حيث توضّح CH. Eluère بأنّ عنصر الحديد بدأ في الاستعمال منذ الألفية الثانية ق.م في بلاد الأناضول والشرق الأوسط والأدنى، حيث أدرج ضمن الاستعمالات الشائعة لدى الحيتيين، لكن عرف هذا المعدن بأوروبًا الغربية والوسطى في بداية الأمر كمادّة زخرافية فاخرة خلال العصر البرونزي النهائي ثمّ تطوّر استخدامه وميّر حقبة العصر الحديدي الذي يسبق الدخول المباشر إلى التاريخ لمختلف شعوب أوروبًا. اتّضح هذا العصر الحديدي الأوروبي للأثريين خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر وبوجه التحديد في سنة 1824 أين تمّ العثور على مقبرة واسعة بالنمسا تعرف بـ هالستات Hallstat ذات 1300 قبر، مؤرّخة ما بين القرن الثامن والخامس ق.م، نسب لها مصطلح العصر الحديدي الأوّل. ثمّ عثر خلال سنة 1853 بالقرب من بحيرة نوشاتيل Neuchatel على مجموعة من الأسلحة والحلي في موقع يسمّى بـ تان Tène أرّخ له من القرن الخامس إلى الأوّل ق.م وأطلق عليه مصطلح العصر الحديدي الثّاني الذي يبدأ ما بين 500 و450 ق.م وهي فترة متزامنة مع التاريخ المكتوب عند الأغريق¹.

وعلى الرغم من عدم معرفة مجتمعات وقبائل الشريط الشمالي لإفريقيا للأبجدية مبكّرًا، وبحكم اتّصالاتها وتعاملاتها بكيفية أو بأخرى مع الشعوب التي عرفت الكتابة، فهي تدرج في المجتمعات التاريخية وتدخل بدورها في هذه الحقبة، على نفس المنوال المنتهج حاليًا، فالتاريخ الميلادي

¹ Eluère Ch. Et Mohen J.P., L'âge du fer, 3eme partie du livre « La protohistoire » P. 325.

المطبّق حاليا في العالم ليس من حيث التأريخ فحسب بل كمقياس في التعاملات التجارية والاقتصادية والسياسية السارية على كل دول المعمورة بما فيها المسلمين، المسيحيين والهندوس...

إنّ منح الشعوب التي لم تعرف الكتابة حسب روايات ونصوص المجتمعات التي عرفتھا أمرا غير مقبول في نظرنا لتضمّنه خلفيات احتقارية واقصائية بقيت تخدم مسألة العجز التاريخي والتخلف التي طالما ما نعتت بها هذه الشعوب، وهذا ما يستدعي في الوقت الرّاهن التساؤل حول مسألة التأريخ الموافق للفترة المتزامنة لجيل آبائنا وأجدادنا الذين كانوا معزولين بعيدا عن المراكز الحضرية الأوروبية خلال الأربعينيات والثلاثينيات من القرن الماضي بل بسنوات بعد حلول الإستعمار الفرنسي في المشاتي والمداشر والجبال والشعاب والصحاري، فكانوا لا يعرفون الكتابة بسبب الجهل الذي فرض عليهم وبالموازاة كانت أمورهم تسجّل وتوثّق نشاطاتهم بأدق التفاصيل في إدارة المستعمر، فأين ندرج إذن المخلفات الماديّة لحياتهم اليومية المهجورة حاليا من بقايا مساكن عضوية أو صلبة وحويطات الماشية وشقف فخّارية مقولبة؟ فهل هذا يعني بأنّ آبائنا وأجدادنا المباشرون عاشوا في فترة فجر التاريخ أم خلال التاريخ الحديث؟

الأستاذ : مراد زرارقة .